معركة « بلنهايم »

للشاعر الانجليزى روبرت سوثى

بقلم الأستاذ محمود عزت عرفة

[بلنهايم قرية فى بافاريا الغربية على ضفاف الدانوب الأعلى ، انتصر عندها الانجليز وحلفاؤهم من الأوربيين بقيادة مارلبورو (وهو جون تشرشل جـد ونستن تشرشل الحالى ، يعاونه الأمير أوجين صاحب سافوى ... على جيوش الفرنسيين والبافاريين بقيادة المارشال تالارد ؛ وكان ذلك فى ١٣ أغسطس ١٧٠٤ م

وقد أنشأ روبرت سوثى — وهو أحد شعراء البحيرة الثلاثة قصيدته هذه عام ١٧٩٨]

كانت أُمسيَّة من أمسيَّات الصيف الرائعة ؛ وقد أنهى « كَسْبَار » العجوز عمله فى مزرعته ، ثم احتبى أمام باب كوخه يرقب الشعاع الغارب فى سكون ... بينا انطلقت حفيدته « وِلْهِلْمِينا » تلهو بجانبه على المرج الأخضر

وبعد هنيهة أقبل أخوها « بيتركين » يقلب فى يده كرة بيضاء مستديرة ، عثر بها وهو ينبش الأرض إلى جانب الجدول القريب ...

وراح الصغير يتساءل فى لهفة عن هذه الكرة المستديرة الملساء ؛ فتناولها منه الجد وأقبل يفحصها بيده وبصره ؛ بينا وقف أمامه الصغيران ينتظران جوابه فى لهفة واشتياق

هزَّ الشيخ رأسه فى أسف ؛ وتنهد تنهيدة حرَّى ثم قال : « هذه جمجمة أحد أولئك المساكين الذين سقطوا صرعى يومَ الانتصار الكبير ... لقد طالما عثرت بمثلها وأنا أنبش الأرض : فى الحديقة ... وفى المزرعة ... وفى كل مكان . وكم من مرة ارتطمت سكة محراثى بجمجمة كهذه ، حتى لأصبحت وما أكاد أحفِل بها أنِّى أجدها . نعم ؛ إن آلافاً وآلافاً [1] من الرجال البواسل طحنتهم رحى القتال فلم تبق منهم إلا أشلاء مختلطة ؛ فى يوم هذا النصر الذى ارتفع ذكره ودوى صداه !

فهتف « بيتركين » فى دهشة : ولكن ... قل لى يا جدى علام اصطرع هؤلاء الرجال ؟ وفيم استباحوا لأنفسهم أن يَحْصَدُوا نار هذه الفتنة المبيرة ، ويتساقوا بأيمانهم كؤوس المنية دهاقاً ؟ ...

وأصغتْ ولهلمينا إلى الجواب فى لهفة ، وقد حدقت فى وجه جدها بعينين مستطلعتين

قال الشيخ الهرم : هـذا سؤال لا يحضرنى جوابه [1] ؛ ولكنى سمعت الجميع يقولون : إنه كان انتصاراً رائعاً تردَّد صداه فى كل مكان ...

كان أبى يقيم يوم ذاك فى (بِلِنْهايم) خلف هذا المجرى القريب ؛ ولقد أضرم المتحاربون النار فى بيته حتى تداعت أركانه وانهار بنيانه ؛ فلاذ بأذيال النجاة ، وشرد هائماً فى السهل العريض ، مع زوجة مكروبة ، وطفل مذعور ، يطاردهم الموت أنى ذهبوا ، وتسد عليهم كوارث الحرب كل مسلك ... فما يملكون لها دفعاً ، ولا يجدون لهم من دونها موئلا ...

لقد فعل الحديد والنار فعلهما فى هذه الأنحاء ، وانبثت نذر الهلاك والدمار فيها طولاً وعرضاً ؛ حتى لذهلت كل مرضعة عما أرضعت ، ووضعت كل ذات حمل حملها . ولكم من شيخ مات إعياء وضعفاً ؛ وطفل اخترم جزعاً وخوفاً ... ولكن أشياء كهذه تحدث دائماً — كما تعلمان — عند كل انتصار كبير !

إنهم ليتحدثون فى ارتياع وذهول ، عن بشاعة المنظر الذى كانت تقع عليه العين يوم انجلى غبار المعركة عن أكداس فوق أكداس من أشلاء ممزقة ، وهامات مفلقة ؛ قد صهرتها حرارة الشمس ، ودب فيها دبيب البلى . ولكن هكذا الشأن فى كل نصرة : مسرة تخفها الآلام ، ونعمة يعانقها الشقاء ، وتسد سبيلها الكوارث والفجعات ...

لقد طوقت هذه الحرب (دوقَ مارلْبورد) بهالة من المجد والفخار ، وأكسبه صدق بلائه فيها محبة وثيقة من كل قلب ، وثناء رطيباً على كل لسان . وكذلك حظى أميرنا المحبوب (أوجين) بقسط من الحمد عظيم ، ونصيب من الثناء وافر ... فاعترضت ولهلمينا بقول : عجباً ! وفيم كل هذا ؟ لقد ارتكبا والله شناعة ، وأتيا أمراً إدّاً .

---

(١) لو كان (كسبار) من الملمين بحوادث التاريخ لقال إن هذه الحرب جزء من (حرب الوراثة الأسبانية) التى أثارتها أطماع لويس الرابع عشر سنة ١٧٠٠ م ، والتى أدت إلى قيام تحالف عسكرى ضده من انجلترا وهولندة والنمسا وبروسيا ، ثم انتهت بعقد صلح أترخت — بعد سلسلة من الوقائع العنيفة — عام ١٧١٣ م .

(١) انجلت هذه الوقعة عن أحد عشر ألف قتيل من الحلفاء ، وأربعين ألفاً من الفرنسيين والبافاريين ووقع المارشال الفرنسى « تالارد » أسيراً